أهُناكَ حَياةٌ قبلَ الموت؟
عن غربٍ يرى انعكاس نفسه في عيون مستعمرينا

عبد الرحمن الجندي – مصر

المنصّة
٢ كانون الثاني/يناير ٢٠٢٤

"أهناك حياة قبل الموت؟ "

استحضرتُ تساؤل مريد البرغوثي في قصيدته "لا مشكلة لدي" وأنا أراقب الأعلام الفلسطينية ترفرف في سماء مدينة بيتسبرج الأمريكية في 13 أكتوبر/تشرين الأول الماضي. كانت هذه المظاهرة الأولى التي تشهدها المدينة للتضامن مع فلسطين منذ اندلاع مجازر الاحتلال في غزة ردًا على طوفان الأقصى.

كانت كذلك هي مظاهرتي الأولى منذ اعتقالي في القاهرة أثناء المشاركة في مظاهرة ضد الانقلاب عام 2013. بمجرد بدء المنظمين العرب في بيتسبرج خطاباتهم ملأني الانزعاج. أنصَتُّ إلى الخطاب الاستباقي الذي أمقته عن كوننا العرب المتحضرين، محبي السلام، لسنا المعادين للسامية المتوحشين. خطاب يستهدف درء هجوم وتشويه متوقعين، لم يقعا بعد لكنهما سيحدثان رغم ما قيل على أي حال.

اخترقَت صرخة حادة سكونَ الحشد، فالتفتُّ لأرى رجلًا أمريكيًا أبيض ضخمًا يدفع المتظاهرين من ظهورهم ويلكم من يعترض طريقه. وصل الرجل لمنتصف الدائرة ثم وقف رافعًا إصبعه الوسطى في وجوهنا، مرسلًا وابلًا من الشتائم. سرعان ما أحاط به بعض المتظاهرين، موجهين إياه نحو الشرطة الموجودة في المحيط.

لم يعلق بذاكرتي من هذا المشهد الكراهية أو العنف اللذان حملتهما عيناه. لم أكترث لذلك كثيرًا. ما جعل الدم يغلي في عروقي هو يقينُه الراسخ بأنه لن يُصنف "إرهابيًا" أو "همجيًا" بعد هجومه على الناس المرتعبين من تلك التهم حتى وهم يُبادون.

في الأسابيع التالية، ظلت عيناي، كما الملايين حول العالم، ملتصقتين بشاشات الأخبار .يرتج قطاع غزة يوميًا تحت قصف عنيف وحصار محكم يُنفِذُه جيش الاحتلال والنظام المصري .في أكتوبر، قطع الاحتلال عن غزة المياه والكهرباء والوقود. بحسب وزارة الصحة الفلسطينية، تجاوزت أعداد القتلى العشرين ألف فلسطيني، في رقم غير مسبوق عبر خمسة وسبعين عامًا من الاحتلال.

أترك هاتفي وأنتقل إلى اللابتوب، عَلَّ الشاشةَ الأكبر تحمل احتمالاتٍ أوسع. أُقَلّبُ بحثًا عن خبر يبعث الأمل، وأجدني أعود إلى كلمات مريد:

أتلمَّس أحوالي منذ وُلدتُ إلى اليوم

وفي يأسي أتذكر

أن هناك حياةً بعد الموتِ

هناك حياة بعد الموت

ولا مشكلة لدي

لكني أسألُ: يا الله.. أهناك حياة قبل الموت؟

خلال الشهرين الماضيين، شاهدنا حملة إبادة جماعية مروعة للفلسطينيين على يد جيش الاحتلال. رأينا تغطية مُشَيطِنةً للفلسطينيين في الإعلام الغربي وشهدنا رعاية أمريكية غير مشروطة للمذبحة، بينما يقف العالم متفرجًا، إن لم يكن مصفقًا.

نطرح كعربٍ تساؤلاتٍ جوهريةً عن مكاننا في هذا العالم. ندرك بشكل لم يكن قط أوضح من اليوم أن الثمن البخس لحياتنا ليس خللًا في النظام العالمي، بل هو جزء لا يتجزأ مما صُمّمَ لتحقيقه.

في كتابه كل رجال الباشا، يسرد المؤرخ المصري خالد فهمي قصة أول نسخة مما أصبح اليوم جواز السفر المصري "التذكرة". في أوائل القرن التاسع عشر، تحت حكم محمد علي باشا، فرضت السلطات على الفلاحين حمل بطاقة هوية تسمى التذكرة لردعهم عن ترك قراهم وتنظيم تحركاتهم، كانت تحمل اسم الشخص ووصفه الجسدي، واسم والده وقريته. بدونها، يواجه الفلاح خطر الترحيل إلى قريته.

اليوم، يطلق مسمى التذكرة أيضًا على وثيقة يحملها كل سجين. خبرت هذا حين قضيت ست سنوات وثلاثة أشهر أتنقل بين سبعة سجون ومراكز اعتقال كسجين سياسي، ممسكًا بتلك البطاقة الصفراء الباهتة التي حَوَت بياناتي الشخصية ورقم زنزانتي وحكمي وسجلات العقوبات، من الحبس الانفرادي إلى حظر الزيارات. تذكرتي كانت تجسد مفهوم: امتلاك الدولة لجسدي.

لا تزال معظم جوازات سفرنا العربية اليوم تلعب الدور نفسه في بلداننا وخارجها. في مصر، ليس لجسدي ثمن. في حين أن ثمن هتك الجسد الغربي في بلادنا باهظ جدًا. كلما امتد بطش السلطة، على سبيل المثال، ليمس جسدًا غربيًا، توالت عليها الإدانات الدولية. حدث ذلك في مقتل الباحث الإيطالي جوليو ريجيني بوحشية على يد قوات الأمن عام 2016، وهي جريمة لا يزال شبحها يزعج النظام. وقتها قالت والدة ريجيني "قتلوه كما لو كان مصريًا. "

حين تركت مصر عام 2020 بعد إطلاق سراحي من السجن، كنت أبحث عن بداية جديدة كإنسان تحمل معاناته وزنًا. لم أكن واهمًا بخصوص الحلم الأمريكي؛ كثيرًا ما صادفت النظرة المحتَقِرة المعتادة من الغرب، التي تُرجع هجرتنا لبلادهم لاستعلائهم القِيَمي، لا لفرار من تاريخ طويل من الفوضى التي خلفتها حروب أشعلوها، والديكتاتوريات العسكرية التي أرسوا قواعدها واستمروا في دعمها لمصالحهم في المنطقة، ناهيك عن الدمار البيئي الذي تسببوا فيه ونستمر في دفع ثمنه لليوم.

غيرَ أن الشهرين الماضيين فاقا أحلك كوابيسى. يمنحني اسمى العربي سلسلة من المعرِّفات، تبدأ بـ"آخرَ مختلف" وتنتهي بحيوان بشري.

خلال عراكي الفكري مع موقعي في العالم، يصف أصدقائي الأمريكيون انزعاجي بأنه "اضطراب ما بعد الصدمة"، ناجمٌ عن أهوال السجن. لم أدرك من قبل لِمَ يزعجني دومًا هذا المصطلح، حتى قرأت كلمات سماح جبر، رئيسة خدمات الصحة النفسية في وزارة الصحة الفلسطينية.

في مقابلة لها عام 2019، أوضحَت أن مفهوم "اضطراب ما بعد الصدمة"، المنبثق من الفكر الغربي، يفترض وجود زمن قبل الصدمة وآخر بعدها. لكن بالنسبة للفلسطينيين وكثير من العرب، تمتد الصدمة عبر الزمن والأجيال: واقع متصل لا ينقطع.

لا "قبل" أو "بعد" لنا: الصدمة هي وجودنا. عندما تتقابل أعين اثنين عربيين في المنفى، يلمع سوادهما بشيء مألوف ومتبادل. تتجاوز تذكرتنا حدود الزمن وأسوار السجون والجغرافيا. نحمل غربتنا في ثنايا الوجه ونخاع العظام.

اليوم، أحمل خواءً في قلبي بعد سلسلة من الأحداث المأساوية في منفاي :طعن الطفل الفلسطيني وديع الفيومي ذي الست سنوات ستًا وعشرين مرة حتى الموت في ولاية إلينوي؛ إطلاق النار على الطلاب الجامعيين

الفلسطينيين هشام عورتاني وكنان عبد الحميد وتحسين علي أحمد في ولاية فيرمونت؛ حادث الدهس المتعمد الذي تعرض له الطالب السوري عبد الوهاب عميرة في جامعة ستانفورد، وغيرهم الكثير.

أستطيع تقبل فكرة الموت. نعرف الموت جيدًا. نشأنا زمانًا في حضرته، ذقنا طعمه وحزنه الذي، كما يصفه مريد البرغوثي، شاركناه مقعده ومخدته ومنديله وملمس حذائه على زجاج ساعاتنا. موتٌ علمنا شَهِيَّتَهُ لأجسادنا عن دونها.

لم يهتم هذا العالم يومًا بالإفساح لنا لنشاركه الطاولة كمساوين. حتى في أكثر الدوائر تقدمية، نظل نحن العرب مصدر إزعاج يُتسَامح معه فقط حالَ بقائنا عربًا نموذجيين: محنيي الرؤوس، شاكري الأنعم، سهلي البلع والهضم، نقدم الإدانات المطلوبة قبل أن نطالب بإنسانيتنا. داعمونا قلةٌ، وحلفاؤنا أقل. نرى هذا الآن.

بين أوطان سحقتنا ومنافٍ تتعطش لسحقنا، يبدو أحيانًا أننا لن نعرفَ حياةً قبل الموت. إن كان هذا شعوري، أحاول تخيل ما يعيشه الفلسطينيون في غزة، وأفشل. في لحظة، هناك جسدٌ يتنفسُ، وسقفٌ. في اللحظة التالية: رَدْمٌ ممزوجٌ بما يشابه أطراف البشر.

أتذكر حكمة عربية تقول إن الناس من انتظار الذل في ذل، ومن انتظار الفقر في فقر. أفكر، الناس أيضًا من انتظار الموت في موت. تحت ظلال هذا الموت الذي يلوح في الأفق، مهددًا كل لحظة بالحلول، أجد نفسي أعيش في كنفه. أتأمل بحيرة، كما فعل مريد يومًا: هل سنذوق أبدًا حياةً قبله؟

لا أملك الجواب، لكن ما أعرفه هو أن الصورة البراقة للتفوق الأخلاقي الغربي قد انهارت. اليوم نتخلى كعرب عن الشعور بالتبعية الذي أُشرِبناهُ سنينَ فأثقلَنَا. نحاوط سويًّا أسانا المشترك، محاولين نحت مسارنا من جديد داخل اللغة والتاريخ: لغتنا وتاريخنا.

في هذه الحياة التي ليست كالحياة، لا نتسول إنسانيتنا من العالم بعد اليوم. نسعى أن نتخطى مخاطبة قامعينا، أن نستبدلهم بأن نرى بعضنا بعضًا، وأن نجد في التقاء الأعين ملاذنا الكافي.

Is There Life Before Death?

Abdelrahman Elgendy – Egypt
Al Manassa
2 January 2024

I thought of this line by poet Mourid Barghouti as the Palestinian flags billowed above my head. This was the first pro-Palestinian rally in Pittsburgh since the massacres in Gaza began this October, and protesters shook their signs in solidarity: *End the Occupation! Cease-fire Now!*

The day also marked my first rally since my arrest 10 years ago in Cairo at a protest against Egypt's 2013 military coup. The organizers of the Pittsburgh event, who were of Arab origin, began their speeches by denouncing the attacks they had not yet faced but anticipated. I clenched my jaw listening to the long preface: We Arabs are decent, civilized, peaceful. We are not the antisemites nor the savages they claim we are.

The harmony of the day's gathering was suddenly interrupted by a yelp — my wife's. I turned in time to see that a bulky and bald White American man had knocked her and several other protesters over. He raised his middle finger as a stream of insults poured out of his mouth. A clutch of protesters eventually surrounded him, pushing him toward the on-site police. More than anything else, it was the look in his eyes that I will never forget. Not the hatred, not the violence — that, I could stomach — but the lack of hesitation, the assuredness that he would never be labeled a "terrorist" or "barbaric." Only we would ever face those charges.

In the weeks since, my eyes, like so many others around the world, have been glued to the news. The Gaza Strip has been reeling from vicious bombardment and a complete siege. In the second week of October, the Israelis cut Gaza's access to water, electricity and fuel. According to the Gaza Health Ministry, the death count has exceeded 20,000 Palestinians — a number without precedent across about 75 years of occupation.

As I scour the internet, trying and failing to find a trace of good news, I return to Barghouti, who died in 2021:

"I look at my life, since the day I was born.
In my despair, I remember:
There is life after death; there is life after death
and I have no problem.
But I ask:
O, God,
is there life before death?"

Over the past two months, we've witnessed a military campaign that an increasing number of scholars are calling a genocide.

We've also seen biased news coverage, along with American complicity in the massacre, as much of the rest of the world stands by.

As Arabs, we're asking fundamental questions about our place in the world. We're coming to understand that our disposability is not a failure of the world order; it's one of its integral functions.

In "All the Pasha's Men," Egyptian-born historian Khaled Fahmy writes about the earliest iteration of what we now know as the Egyptian passport — the tezkere, an Ottoman-era term for identity card. In the early 1800s, under Muhammad Ali Pasha's Ottoman rule, to deter Egyptian peasants from abandoning their villages and to better regulate their movement, the authorities mandated that each person carry a tezkere: a document that included the bearer's name, physical description, father's name and village name. Without it, people would face repatriation to the villages they had come from.

Today, "tezkere" is the name of the identification document that every modern Egyptian prisoner carries behind bars. I know this from experience. For six years and three months, I navigated seven Egyptian detention facilities, clutching the worn yellow card that logged my personal data, cell assignments, sentencing details and records of additional punishments, from solitary confinement to visitation bans. The tezkere, echoing its origins, encapsulated the state's regulation of my body.

Today's Arab passports and the identities they confer continue to play a similar role both within Arab countries and around the world. In my homeland, I'm acutely aware that my body is expendable. A Western body there, however, will always have more currency. Each time Egyptian authorities have harmed a Westerner, they have faced international opprobrium. The brutal killing of Italian researcher Giulio Regeni in 2016, for example, haunts them to this day. Overwhelming evidence points to his killers being members of the Egyptian security forces. Tellingly, Regeni's mother commented, "They tortured and killed him as if he were Egyptian."

Our bodies, broken at no price, are thus broken often.

When I fled Egypt in 2020 after my release from prison, I sought a rebirth: to be recognized as a body whose suffering is consequential. I had no romantic ideas about the American Dream; I've too often encountered the condescending notion that our migration is in pursuit of superior values, rather than a flight from the chaos wrought by U.S.-imposed wars, the monarchs and military dictatorships that Washington has installed and continues to prop up, or the environmental havoc the United States has caused.

But these two months have exceeded my darkest nightmares. An Arab name affords me a new series of monikers, a lineage that begins at "Other" and ends at "human animal."

As I grapple with my position in the world, my American friends diagnose my distress as post-traumatic stress disorder, triggered by the traumas of incarceration. I never grasped why the term "PTSD" irritated me so much until I read the words of Samah Jabr, the head of mental health services at the Palestinian Ministry of Health. In a 2019 interview, she argued that the concept of PTSD, with its roots in Western thought, demands a before and after — a time before the trauma starts and a time after it ends. Yet for so many Arabs, trauma is a continuous, intergenerational reality.

There is no pre- or post- for us. Traumatic stress is life. When the eyes of two Arabs in exile meet, there's a silent acknowledgment. Our tezkere transcends time, prison bars and national borders. We carry a built-in estrangement not only in our pockets but also in the lines on our faces and in our bone marrow.

Today, I move with a profound hollowness, the result of a string of tragic events: the horrific fatal stabbing of 6-year-old Palestinian American Wadea al-Fayoume in Illinois; the shooting of Palestinian college students Hisham Awartani, Kinnan Abdalhamid and Tahseen Ali Ahmad in Vermont; the reportedly targeted hit-and-run of a Stanford University student of Syrian origin named Abdulwahab Omira. The list goes on.

The idea of dying, I can take. We Arabs know death. We've grown up with it, made its acquaintance and learned that it has a taste for our bodies.

This world was never built to accommodate us. Even in the most progressive circles, we are a disruption to be tolerated only if we remain model, tokenized Arabs: palatable and coy, offering the prerequisite condemnations before demanding our humanity. Our allies are few, and our confidants are fewer. We understand now.

Between homelands that have crushed us and countries of exile that thirst to do so, it sometimes seems as if there will never be life before death. If this is how I feel, I try to imagine the plight of Palestinians in Gaza. One second, there's a breathing body, a roof. The next second: mangled limbs, rubble.

In fear of this imminent death, I dwell in death. I wonder, like Barghouti: Will I ever know life before it?

Will *we*?

I don't have the answer. But I know that the facade of Western moral superiority has crumbled. Today, we Arabs shed our internalized inferiority. We gather around our collective sorrow and attempt to carve our way back into language and history: *our* language, *our* history.